

حول: المغامرات اللغوية

الأستاذ عبد الحق فاخيل

(المغرب الأقصى)

واود قبل الخوض في الموضوع ان اسجل تقديري للروح العلمية التي حدت بالاستاذ الناقد الى انكار نظريتي هذه ولو ان ذلك ضد اللغة العربية التي هو مكبر لشأنها محب لها ولاهلها الذين هم قومه واهله .

واقع الامر اني انا الآخر لم اقل ان العربية ام اللغات الآرية والحامية والسامية وان الشعب العربي ابو الآريين والحاميين والساميين وان الجزيرة العربية وطنهم الاول جميعا - بدافع من مياهاة قومية او عصبية من اي نوع ، فقد كنت اتوهم اول الامر ان العربية التي تبدو كأنها حديثة عهد بالتحضر والتنقف كانت عالة على اللغات المتحضرة القديمة من اغريقية ولاتينية وسنسكريتية وفارسية، وان وجود الالفاظ المشتركة بين العربية وهاته اللغات لم يكن يعني الا ان العربية اقتبستها واغتنت بها . لكنني بعد البحث والمقارنة اكتشفت في العربية اصول الكثير من الفاظ اللغات الآرية كما اكتشفت ان الالفاظ العربية يمكن ارجاعها بوجه عام الى اصولها الصوتية الاولى ، في العربية نفسها - مما هداني الى وضع علم « الترسيس » اللغوي ، الذي المع اليه ناقدا المفضل . ولا اتخرج من القول ان البحث لو كان اظهر لي ان ام تلك اللغات جميعا هي السنغالية او الانكليزية او اليابانية لما ترددت في اعلان ذلك بنفس الحماس الذي اعلنت فيه امومة العربية .

اشكر قبل كل شيء للاستاذ ذنون ايوب ثناءه على شخصي قبل ان يتطرق الى نقد كتابي «مغامرات لغوية» . وعلمي بأنه ضنين بالثناء على احد دون اقتناع كاد يجعلني اصدق بأنني مستأهل للكلمات الاخوية الطيبة التي قالها عني .

وكان بودي ان اتحدث في جوابي هذا عن مكانة ذنون ايوب اديبا وقصاصا ، وعن مساهمته الماثورة بقصصه ومقالاته في مكافحة الفساد والتردي الاجتماعي والسياسي منذ اواخر الثلاثينيات مما لا يزال يتردد صدهاء في نفوس الذين زامنوا ذلك العهد . لكنني خشيت اذا أنا تسطت في ذلك ان يقول القاريء انهما يتماذحان بالمقايضة فلا مناص لنا اذن من السكوت على ثنائه والاجابة على نقده وحده . وحبنا هذا التنويه البسيط .

ونقده يتناول بعض امور فرعية لو اقتصر عليها لاثرت السكوت عنها ايضا . لكنه تناول كذلك الامر الاساسي الجوهرى في الكتاب وهو نظريتي القائلة بأن العربية هي ام اللغات الآرية بالاضافة الى الحامية والسامية . وهي نظرية توصلت اليها بمقارنة بعض الحقائق من تاريخية وجغرافية ولغوية . وسأكتفي هنا باستعراض الحقائق اللغوية ، اما الباقي فقد اوضحته في الكتاب المذكور ولا ارى حاجة الى الاعادة فيه .

وأهل النظريات الجديدة متحمسون دائما لنظرياتهم .. لكن نرجو ملاحظة الفرق الشاسع بين التحمس والتعصب .

قال الاستاذ ذنون اني اكاد اكون مبتكر العلمين اللغويين : التائيل والترسيس . والحق اني مكتشف احدهما فقط . فاما التائيل فعلم لغوي معروف عند الاوربيين واسمه بالانكليزية etymolog وقد ترجمه بعض اللغويين العرب « علم أصول الالفاظ » . لكنني وجدت هذا الاسم طويلا فاقترحت تسميته علم « التائيل » باعتبار ان الالة في المعجم تعني الاصل ، فانا مسؤول عن تسميته العربية وحسب . ووظيفة هذا العلم هي اعادة الفاظ اللغة الى اصل سابق لها ، فالالفاظ الانكليزية مثلا يبحثون عن ائيل كل واحدة منها فيجدونه في بعض اللغات الحديثة كالفرنسية والسويدية وغيرهما ، او في احدى اللغات القديمة وهي على الاغلب السكونية او الكلتية او اللاتينية او الاغريقية او السنسكريتية . وهم يقفون عند هذا الحد لانهم لا يعرفون الاثول التي جاءت منها الفاظ هذه اللغات .

واما العلم اللغوي الذي انا مسؤول عن وضعه وتسميته معا فهو علم « الترسيس » الذي يعود باللفظة التي رسها الاول اي بدايتها الصوتية التي نطق بها اول انسان نطق بها تقليدا لاحد الاصوات المسموعة ، مثل محاكاة صوت الريح (هوووو) ، وصوت الفروج (صي صي صي) ، وصوت الصغير (صف) ، وهكذا .. وعلى ذلك تناولنا بعض الالفاظ الانكليزية التي بحثوا عن اصولها فوجدوها ترجع الى الفاظ بعض تلك اللغات ووقفوا عندها . فهذا قصارى ما يستطيعه علم التائيل (etymology) .

لكن علم الترسيس لا يقف عند حد حتى يصل الى الصوت الاول المحكي . وعلى هذا مضينا في البحث عن اثول تلك الالفاظ الكلتية واللاتينية والاغريقية .. فوجدنا في العربية اثولها وارساسها .

فمثلا كلمة aquarium (حوض المائيات ، بالانكليزية) اعدناه الى صوت هبوب الريح (هوووو) ، و top (قمة) وجدناها ترجع الى الكلمة الكنعانية طاو (كرة) وهذه من (طوى) وهذه من قول ابن الفأبة (طو) تعبيراً عن صوت انكسار غصن او عصا دون انفصال أحد الطرفين عن الآخر ، و calcium (كلس) رسنها من صوت القطع (قط) .. وهكذا .

وقد اقترحنا على الانكليزية والفرنسية تسمية علم الترسيس (radixation) باعتبار ان radix تعني سنخ الشيء ولاسيما اللفظة اللغوية، وهي من اللاتينية بمعناها ومبناها . لكن بلغنا ان المستشرق الفرنسي الكبير جاك بيرك ، الاستاذ بالسوربون ، اخذ يسمى الترسيس بالفرنسية (racinisme) ، اي من نفس مادة (الرس) العربية ، ومعناها : التجذير .

اما قول الاستاذ ذنون ان لعلغة الطفل (لغ لغ) قد يرجع تاريخها الى نصف مليون سنة ، فان الراي الذي يكاد يتفق عليه الباحثون ان الانسان ظهر على هذه الارض - كانسان بشكله الحاضر - قبل نحو مئة الف سنة ، كما ذكر هو ايضا . والظاهر ان الانسان لم يتوصل الى التخاطب بلغة الالفاظ الا بعد ذلك بعهد طويل . ومن المستبعد ان يكون قد اخترع اللغة قبل ان يصبح انسانا ببضعة الوف من القرون ، ولاسيما ان بعض قبائل البشر لم تتوصل الى اللغة بمعناها الصحيح الى انيوم ، او الى مطالع هذا القرن على الاقل ، حيث كان بعضها يتفاهم بالاشارات ، وبعضها باصوات اشبه باصوات الحيوانات ، مما لا يمكن تسميته لغة .

وهنا يتساءل الاستاذ ذنون : « فآين كانت العربية يومذاك » ؟

ان الشعب الذي انشأ هذه اللغة منذ بدايتها الصوتية الساذجة هو نفس الشعب الذي صنع المعلقات بعد عشرات القرون على كل حال ، ولو ان تسميته (عربيا) حديثة العهد . ولا بأس علينا ان نسميه عربيا من باب الاختصار بدلا من تسميته العلمية الدقيقة (الساكن الاقدم لشبه الجزيرة التي تسمى الآن جزيرة العرب) .

ولا بأس علينا كذلك ان نسمي لفته (العربية) ولو انها كانت يومئذ في طفولتها الاولى ولم تكن قد سميت بالعربية مد . وقد جرى العلماء على هذا الفرار في تسمية المواقع الاثرية القديمة باسمائها الحاضرة ، فهم يسمون عصر (فجر السلاات) في العراق مثلا باسم الموقع المتواضع الحديث الذي اكتشفوا فيه آثاره والذي يدعوه العامة « جمدة نصر » . وكذلك انسان (جاوة) وانسان (نياندرتال) وغيرهما قد سموا بالاسماء التي تطلق الآن على تلك المواقع ولو لم تكن تلك الاسماء قد ظهرت في تلك التواريخ القديمة السحيقة . على اننا كثيرا ما اطلقنا

اسم (الاعريين) على قدامى العرب و (العربية) على الجزيرة العربية اختصارا .

وقلنا فى كتابنا « مفامرات لغوية » ان العرب صاغوا فعل (صأي الفرخ) من صوت الفروج (صي صي صي) ، ثم اشتقوا صاء وصاح وصات ... الخ ، وان بعض المشتقات العربية انتقلت الى اللغات الاوربية . ويرى الاستاذ ذنون ان ذلك الصوت لم يكن تقليدا لصوت فرخ الدجاجة بل لصوت البلبل والعصافير ، لان « الدجاج قد دخل فى حياة الانسان مستأنسا بعد وجود العصافير والبلابل وغيرها فى القاب بعشرات الالوف من السنين » .

وجوابنا على هذا هو ان الانسان الاعرب الذى اخترع لغته بمحاكاة الاصوات المسموعة منذ عهد بعيد لا يمكننا تحديده ، لم يتوقف فى أي عهد من العهود عن خلق الفاظ جديدة كلما سمع اصواتا جديدة . وظهر الدجاج حديثا فى حياته لم يمنع اذنه الموسيقية الموهبة من استخدام اصواتها مادة خامه . لصنع الفاظ مستحدثة . واذا كان ثمة مجال للشك فى حداثة قولهم (صأي الفرخ) فلا سبيل الى أي شك فى حداثة قولهم (صج) أي : ضرب حديدا على حديد فصولا . فهذه الكلمة الصوتية الرسية من مخاوقات العهد الحديدي ، ويجوز فقط ان نعتبرها اقدم من ذلك اذا قلنا انهم صاغوها فى العهد النحاسي ثم انتقل المعنى من النحاس الى الحديد . لكنها لا يمكن بوجه من الوجوه ان تكون اقدم من ذلك ، لانه ما من مادة غير معدنية يمكن اذا ضربت بمثلها ان تحدث صوت (صج) . ومن ثم فهي أحدث من العهد الحجري قطعا .

ومثل ذلك يمكن ان يقال فى فعل (قط) الذى قلدوا به صوت قطع عصا مثلا بضربة فأس . فلا يمكن صنع اداة من الحجر لها هذا المضاء وهذه القوة التى تقطع بضربة واحدة وتحدث صوت (قط) .

وانما قلنا ان (صي صي صي) هو صوت الفروج لانه لا يشبه صوت فرخ أي طائر آخر نعرفه . ومن شدة شبه (صي صي صي) بصوت فرخ الدجاجة ان بعض عرب الشرق الاوسط ما زالوا يسمون الفروج فى دارجاتهم (صوصي) .

وثمة برهان اقطع من هذا يبيء ان حداثة عهد الدجاج بمعايشة الانسان لم تمنع الاعريين من استخدام صوته فى تكوين لغتهم واستكمالها ، هو انهم اصطنموا كلمة اخرى من صوت نفس فروجنا

العتيد . ذلك ان بعضهم ترجموا صوته الى (جو جو جو) عدا اولئك الذين قلنا انهم ترجموه الى (صي صي صي) . ويدلنا الاستقرار الترسيسي ان هؤلاء سموا فرخ الدجاجة اول الامر (جوجو) ، ثم (جوجة) . وقد انتقلت هذه الصيغة الاخيرة (جوجة) الى الفارسية بنفس لفظها ومعناها . ثم همز العرب اسم الجوجو فنطقوه (الجوجؤ) مثل صنيعهم فى نطق البؤبؤ واللؤلؤ . ثم انهم اطلقوا الجوجؤ على الدجاجة بعد ان كانوا اطلقوه على فرخها ، ومثل ذلك يطلق المصريون بالدارجة اليوم اسم (الفرخة) على الدجاجة و (الفراخ) على الدجاج . ثم اطلق الاعربون اسم (الجوجؤ) على مقدم السفينة أي صدرها لمشايبته صدر الدجاجة . ثم انهم عادوا فاطلقوا الجوجؤ على صدر الدجاجة أيضا بعد ان كانوا يطلقونه على الدجاجة كلها - من باب تسمية الجزء بالكل .

ودلينا على ان الدجاجة كانت تسمى جوجة هو ان السوريين وبعض العراقيين ما زالوا يسمونها (جاجة) وجمعها (جاج) ! لكن بعض قدامى العرب حرفوا الكلمة فصدروها بالبدال فصارت دجاجة . وهذه الصيغة التى كانت تعد عند ظهورها محرفة ومولدة هي التى انحدرت إلينا فى الفصحى . اعني اننا اذا اعتبرنا الاقدم الاعرق هو الانفصح فان (جاجة) اقدم وافصح من (دجاجة) . وترسيبها على كل حال هكذا : الدجاجة - الجاجة - الجوجة الجوجؤ - الجوجو - جوجوجو .

ولم يكتف الاعربون باستيلاد صوت الفروج هذين التوامين - وربما كان يوجد غيرهما مما لا يحضرنا الآن - بل انهم استولدوا صوت امه ايضا - الدجاجة . فمن قولها (نق نق نق) وهي تلقط طعامها قالوا (نقت الدجاجة) أي صوت . ومن التقاطها الطعام اثناء تقيقها ظهر فعل : نقر . ومنه نقد بمعنى واحد ، فالنقاد هو المنقار .. وما زالوا فى الموصل يسمون القلم الحديد الذى يستعمله الحجار فى ثقب المرمر او نقشه (المنقار) ، و يسمون الحجار الذى يعمل فى تسوية الرخام وتشكيله لاغراض البناء (النكار) . وقديما ظهرت من النكار صيغة (النجار) التى تخصصت بنقار الخشب .

كذلك ظهرت من نقيق الدجاجة صيغ مثل :
تقب (ومنها تقب) وتقش وتقح وتقح وتقش وتقش
وتقى ... ومن فعل (تقب) نشأت صيغ : نخب
ونخر ونخرب وخرب وخروب ...

ومعلوم أنهم استعملوا فعل (نقد) لفحص
الدرهم الفضة لانهم كانوا يتقرونه عنى قطعة معدن
ليتبينوا من رنيه صحته من زيفه . ثم انتقل المعنى
من عالم الصيرفة الى عالم الفن والثقافة ، حتى
صارت الكلمة تطلق على بحث قيم مثل (نقد)
الاستاذ ذنون لكتابنا (المنقود) .

حادثة ظهور الدجاج فى حياة الانسان وحداثة
ظهور المعادن لم تقف حائلا اذن دون الاستمرار فى
التوليد اللغوي عند الاعريين .

ومن صاي الفرخ وتقيب الدجاجة وصح المعدن
وقطع العصا ، نستفيد شيئا ، هو ان ملابسات
الالفاظ اللغوية تدلنا احيانا على تاريخ ظهورها ولو
بوجه التقريب ، او تدلنا على الحد الاقصى او
الادنى لذلك التاريخ ، وقد نوهنا بذلك عند كلامنا
على (صج) و (قط) فى كتابنا .

وتأتى الآن الى النقطة الرئيسية فى نقد الاستاذ
ذنون ايوب . وهي القول بأن لغات قاع البحر
المتوسط وما يحيط به قد بقيت ترسباتها فى لغات
البربر والطوارق . والعرب ، وان العربية منقولة من
ذلك المكان ، فهذا تأويل مقبول لوجود الشبه بين
عدد كبير من اللغات - اي مجموعة اللغات الآرية
والحامية والسامية - تأويل مقبول الى ما قبل ظهور
علم الترسيس . ولو كانت اللغة العربية قد انقرضت
لكان من العسير ان نجد تأويلا معقولا آخر له هذه
الوجهة . لكن العجيب ان العلماء المحدثين من
شرقيين وغربيين مع انهم اشدادوا ما شاؤوا بشراء
هذه العربية ودهشوا له لم يخطر لهم ان يستثمروا
هذا الاندهاش وذاك الثراء فى حل المشاكل اللغوية
العالمية . ان اللغة العربية تخبرهم بأوضح منطق كيف
نشأ الكثير من الفاظ هذه اللغات واحدة واحدة .
وبالرغم من ضياع عدة كبيرة من مفردات العربية لم
يزل فيها ما يكفي للاقتناع العلمي . ان اكتشاف علم
الترسيس انما يعنى اكتشاف (وجود) اللغة العربية
.. مثل اكتشاف نجمة سينماية . انها كانت
موجودة من قبل ومعجبا بجمالها بين المعارف لكنها
لم تكن قد اوقفت امام المصورة لتعرض من بعد
بجمالها ومواهبها على الدنيا .

ان استقرار العربية ولو فى النطاق المحدود
الذى استعرضنا فيه بعض الالفاظ فى « علم
الترسيس » يوضح بصورة لا تقبل ترددا ان هذه
اللغة قد نشأت فى موطنها وعلى السنة اهلها ، ولا
يمكن ان تكون قد استجلبت مع جذورها من موطن
آخر . لكن الانتقال الذى حصل فعلا هو انتقال
ثمارها الى مواطن اخرى .

فبعد ان اكتشفنا النجم الواقعي الغني لا يجوز
لنا ان نتركه لنبحث عن موطن المصدن التفسيس فى
ارض اخرى مجهولة ، قد غمرها البحر ، وهي بعد
مشكوك فى امر وجودها اصلا ، ولا علم لنا على كل
حال بأي شيء واقعي يقيني عنها .

هذا بالاضافة الى ان تشابه هذه اللغات الواقعة
على شطآن البحر المتوسط لا يقتصر على هذه
المنطقة بل يمتد الى الافغان ، والى الهند ، بل الى
اقاصي الصين ، وقد رسنا - فى كتابنا المنقود -
الضمائر الصينية من الضمائر العربية البدائية
الاولى .

اننا نتفق مع الاستاذ ذنون على ان لغة قاع
المتوسط ربما كانت قد خلفت آثارا فى لغات
الاقطار المجاورة لها ، واخرى بذلك ان يكون فى
الاقطار الواقعة على سواحل هذا البحر . لكننا لا
نجد فى السواحل الآورية لغة تحتوي على كل
الاصول والفروع . اما الشمال الافريقي فلغاته
البربرية محدودة نسبيا لعزلتها فى الجبال ، ولم
اجد لها معجما يساعد على درسها ، وهي على العموم
لغات قبلية يختلف بعضها عن بعض ، وهي الكتلة
الكبرى من اللغات الحامية . لكنها كالآريات لا تعتبر
جزيرة المادة اذا هي ليست بالعربية .

ولما كانت الضمائر نواة اللغة واقدر الفاظها
على البقاء ومقاومة عوامل التفسير والفناء ، فقد
درسنا ضمائر بعض القبائل البربرية فوجدناها ترجع
عند تحليلها الى اثول الضمائر العربية القدمى .
وهي - الضمائر البربرية - ليست ابعد عن الام
العربية من الضمائر البابلية مثلا . اما فى العربية
فقد كنا درسنا - فى كتابنا المذكور - تطور تلك
الضمائر العربية ابتداء من الاصوات الطبيعية الاولى
الى ان صارت لها معانيها اللغوية الدالة على مختلف
الاشخاص : انا ، نحن ، انت ، اتم ، هو ، هي ..

ولو كانت الالفاظ التى نستطيع ان نعدها الى
ارساسها قليلة فى العربية لامكن القول باحتمال

انتقالها من مكان آخر ، لكن معظم الالفاظ العربية ، وكثيرا من الالفاظ الآرية ، يمكن اعادتها الى ارساسها البدئية فى العربية نفسها . وهي مزية لا تملكها أية لغة سواها .

ان الحقيقة الواقعية التى يحسن ايرادها هنا من واقع التاريخ هي ان الهجرة تضيع على رهط المهاجرين بعض خصائص لغتهم الاولى ولاسيما جذورها الصوتية البدئية . نرى ذلك واضحا فى اللغات السامية اى اللغات القديمة فى الهلال الخصيب : البابلية ، الآشورية ، الكنعانية ، الأرمية فبالرغم من قرب اهل هاته اللغات من الجزيرة العربية ، بل اقامتهم على تخوم بادية الشام التى هي امتداد للدهناء ، وبالرغم من عدم انقطاع الصلة بينهم وبين العرب الرحل الذين كانوا - وما زالوا - ينتقلون على تخوم تلك الصحراء ، وبالرغم من انضمام ارهاط عربية مهاجرة بين حين وآخر الى المهاجرين السابقين الذين استوطنوا مناطق الهلال الخصيب - بالرغم من كل هذه العوامل التى تساعد على احتفاظ المهاجرين باللغة الام وتجديد الصلة بها - لا نجد بين هاته اللغات السامية أية واحدة قد استطاعت التمسك بكل مقومات العربية واثول الفاظها ، بله ارساسها . فلهذا ليس فى مقدورنا ان نسمي أية واحدة منها باكثر من انها جزء محرف من اللغة العربية . ولا تستطيع أية واحدة منها ان تنهض بمعمار ما تنهض به العربية من مهمة التأسيس . بل انها هي التى تبحث عن اثولها وارساسها فى العربية .

هذا الواقع التاريخي الملموس يمنعنا من القول ان اللغة العربية نشأت فى غير موطنها ، وان هذه الدوحة الهائلة قد نقلت بكل جذورها العميقة المتشابكة البعيدة الغور وبكل فروعها الكثيرة المديدة الداخلة فى كل اتجاه - من قاع البحر المتوسط ، كل تلك المسافة ، الى قلب الجزيرة العربية .

ان اللفظة الرسية - البدئية - كثيرا ما تتطور فى خط متعرج طويل تتحكم فى رسمه البيئية ومصادقات الظروف . ومن النادر وربما من المحال ان تتطور فى نفس الخط المتعرج الطويل فى بيئة اخرى . كالماء تصبه فى مكان من الارض فيتخذ مجرى لا يشبه مجرى ماء تصبه فى مكان آخر ، فما على الخريطة الأرضية نهران متشابهان تماما . ومن هنا كان اختلاف اللغات . لان الالفاظ الرسية ، اى

المقلدة لاحد الاصوات ، كثيرا ما تكون متشابهة عند مختلف الامم . اى ان الانسان العربي ليس وحده الذى يحكي صوت هبوب الريح بقوله (هووو) ، وانما هذا شأن كل البشر . ثم يأخذ التطور مجراه الخاص فى كل لغة على اسلوب يختلف عن سواه .

وفى اللغة العربية وحدها تطورت (هووو) الى (ريف) على هذا النسق : هووو - الهو - الهواء - الهباء - الهباب - الأبواب - آب - آل - رال - راف ، ريف . . . كالذي أوضحناه فى كتابنا . ثم اذا بنا نجد هذه الكلمة الاخيرة - الريف - فى اللاتينية بصورة (ripa) بنفس معنى الريف اى الساحل ، ثم بصيغة اقرب الى العربية هي (rive) بالفرنسية بمعنى الشاطئ .

فلا يمكن ان تكون كلمة (ريف) قد نشأت من صوت هبوب الريح فى لغة غير العربية بنفس خط السير هذا المديد المتعرج المعقد ، الذى سلكته فى العربية . وكذلك القول فى كلمات اخرى استعرضناها فى كتابنا المذكور وأرجعناها الى ارساسها العربية .

المعروف ان اللغات البدائية هي التى يقرب الشبه بين الفاظها والاصوات الطبيعية التى نشأت منها . أما اللغات الراقية فقد ذهبت اصولها وبقيت الكلمات الحضارية الراقية التى تولدت منها . ولاسيما ان الامم المتحضرة قد تنقلت منذ اقدم العصور من مكان الى مكان واختلطت لغاتها بغيرها . لكن العربية وحدها تقدم لنا ارقى الكلمات الحضارية والثقافية مع الحلقات المتسلسلة التى تقودنا الى البدايات الاولى . وسبب ذلك هو الظروف الفريدة التى تلابس الجزيرة العربية ، فقد بقي وسطها الرملي المجذب محافظا على حياة البداوة والبدائية على حين راحت اطرافها المتحضرة تصنع من تلك الخامة اللغوية مفردات حضارية باذخة ، واذا بهذه العربية تغدو لغة الراعي والفيلسوف فى وقت واحد . وقد اوردنا فى كتابنا المذكور نماذج كثيرة من الالفاظ الحضارية التى تكونت من الفاظ حيوانية ، والالفاظ الثقافية التى اصلها اربطة البهائم من ثبات وعنان وعقال ، مما تصدى لذكر بعضه الاستاذ الناقد .

وطبيعة الصحراء الفقيرة الشحيحة تدفع سكانها الى الخروج منها لكنهم لا تفري احدا بالدخول فيها . فهي اشبه بالمضخة الكاسية ، تمنع

ولا تمص . وما أكثر الظروف التي طردت فيها سكانها الى مختلف الانحاء كلما زاد عديدهم عن طاقة مراعيهم ، او شحت ارضهم ولو لم يزد سكانها ، او احتربوا فأجلى بعضهم بعضا عن ديارهم .

وعدم دخول الاجانب الى هذه الصحراء يعني بقاء لغة العرب للعرب ، ويعني ان تطورها قد جرى على سنتهم وحدهم دون ان تخالطها لغات أخرى . وخروجهم من جزيرتهم الى الانحاء يعني توزيع لغتهم على جيرانهم وجيران جيرانهم وسكان كل ارض قريبة او بعيدة يحلون بها . ومن ثم كانت الالفاظ الدخيلة في العربية الجاهلية قليلة ، فأكثر الدخيل من مقتنيات عهد التحضر الاسلامي .

وحقيقة أخرى . يقرر العلماء ان اللغة البشرية تكونت من اصول خمسة بوجه العموم ، نجدها كلها صريحة واضحة في العربية ، على حين ان اية لغة حية أخرى لا توجد فيها الا بعض هذه الاصول ، ان وجدت . والواقع أنهم انما توصلوا الى هذه الاصول الخمسة من استقراء عدد غير قليل من اللغات البدائية التي لا تزال تحتفظ بجذورها الصوتية لعدم ارتقائها وابتعادها عن صورة ولادتها . وهذه الاصول الخمسة هي :

1 - محاكاة اصوات الطبيعة . ونذكر كمثال على ذلك صوت الهواء الذي مر بنا حديثه ، والذي انجب الفاظا كثيرة أخرى لم يتسع لها المجال هنا مما ذكرناه في كتابنا ، وكلمات كثيرة أخرى لم يتسع لها المجال في ذلك الكتاب ايضا . وكمثل آخر جديد نذكر صوت الماء : شلشل ، ومنه ترشش الماء ، ثم رش ورشاش ، ثم رذ ورذاذ ، ثم ذر وذري ومذرة .. وذرة ..

2 - تقليد اصوات الحيوانات ، ومن ذلك صوت الفروج الذي مر بنا حديثه ، وصوت الدجاجة امه . ونذكر كذلك من الحيوانات التي سميت بأصواتها : البلب ، والقرة (الضفدع) ، والقاق (الوز العراقي) ، والقوق (المسمى طائر الكوكو) ، والفاق (الغراب) ، والقلسق ، والججد ، والصرصر ، والجحش (من صوت شحيجه) .. وما الى ذلك مما لا يوجد كله في اية لغة أخرى .

3 - تقليد الاصوات المصطنعة ، اي الاصوات التي يحدتها الانسان في بعض اعماله مثل صوت القطع (قط) الذي تحدثنا عنه بشيء من التفصيل

في العدد الثامن من « اللسان العربي » بعنوان « قط وبناتها » وقلنا انه تكونت منه الوف الالفاظ العربية ، وتسرب بعضها الى اللغات الاجنبية . ومثل ذلك فعل (صج) الذي تحدثنا عنه في « المغامرات » ضمن علم الترسيب ، وفي عدد سابق من « اللسان العربي » . نضيف الى ذلك هنا : دق وطق وقلقل وبيقق ...

4 - تقليد الانسان لنفسه ، في الاصوات الطبيعية التي تصدر عنه تلقائيا في مختلف حالاته ، مثل : قهقهه ، قاء ، أن ، عطس (انلها اطر) وهي في الفرنسية tosse (سعال) ...

5 - تقليد اصوات الطفل ، مثل : لغ لغ ، بابا ، تاتا ، دادا ، ماما ... وقد تحدثنا عنها في « المغامرات » فلا حاجة الى الاعادة .

فهذه لغة عصامية كونت نفسها بنفسها دون اعتماد على سواها .

لكن كل هذا وكل الدلائل الاستقرائية الأخرى التي تنبئ ان هذه اللغة قد نشأت في موطنها ولم تستورد من صقع آخر ، لا تخبرنا من أين جاء أسلاف العرب الأوائل وسكنوا تلك الجزيرة في عهدها المخصب . وذلك أمر لم أبحث عنه ولا أهمني أمره في بحثي لانه خارج عن الموضوع اللغوي ، ولأن كل ما يقول فيه العلماء رجم بغيوب ، واستنتاجات يذهب كل من الباحثين مذهبه فيها ، لفقدان الأدلة العلمية القاطعة أو شبه القاطعة . لكن الواضح ان أولئك الاعريين الأولين قد وجدوا في المعربة قبل تكون اللغة ، لانهم لو كانوا قد جاؤوا من مكان آخر ناطقين لتغيرت لغتهم بتغير البيئة ولضاعت اصولها الرسية ، على نحو ما أصاب اللغات السامية وهي اقرب اللغات الى العربية نسبا وموطنا واكثرها بها شبيها . هذا ان لم يكونوا قد تطوروا ودخلوا المرحلة البشرية في معربتهم نفسها - على رأي بعض العلماء .

وحقيقة أخرى . ان الضمائر من اقدم العناصر التي تتكون منها اللغة ، ان لم تكن اقدمها طرا . وقد استعرضنا في « المغامرات » في فصل « اسرار الضمائر » كيف تكونت الضمائر واسماء الاشارة في العربية والآريات من العناصر الثلاثة الأولية (ا ، نا ، تا) منذ نطق بها الأدمي الاقدم ، وراينا تطورها في تلك الطرق المتسلسلة والمتشابكة خطوة خطوة . ونجد في العربية مختلف الاستعمالات

ومهما يكن ..
حتى لو افترضنا أن من المحتمل تخميننا ان
تكون اللغة العربية مستوردة من الخارج ، فما الذي
يدعونا الى الاخذ بالاحتمال التخميني الظني ، وترك
الواقع الناطق الواضح ؟
واخرى تحبونها ..

هي ان ظهور السكنيات الزراعية قبل نحو
عشرة آلاف عام في وقت واحد تقريبا في العراق
وفلسطين له دلالة خطيرة . ولعل تفسير هذه
الدلالة الخطيرة هو أن حياة الاستقرار الزراعي كانت
قد بدأت قبل ذلك في المعربة ثم هاجرت طائفة من
العرب شمالا فاستأنفوا حياتهم الزراعية حيث
استقر بعضهم في العراق وبعضهم في سورية .
وربما ستكتشف آثار سكنية من ذلك العهد في
مناطق اخرى من الشرق الاوسط ، او غيره .

والمعلومات الفلكية ، الموهلة في القدم ، التي
نقلها المهاجر الاعرب الى ارض الرافدين ووادي
النيل - مما تطرقنا اليه في فصل آخر - تدل على
انه كانت للانسان الاعرب ثقافته الكونية ، المسجلة
في لفته ، التي لا يمكن ان تكون لغة رعاة وحسب .
فهل بدأ التحضر البشري في المعربة ؟ .

والمعاني التي ظهرت فيها تلك الضمائر . اما في
الساميات والهاميات والآريات فلا توجد الا بعض
تلك الضمائر تؤدي معانيها الحاضرة ، ولا يمكن في
اية لغة منها تتبع المعاني السابقة للضمائر ولا لصور
المباني التي انتهت اليها . فكلمة (اتا - atta)
تعني أنت بالبابلية ، و (ابا - ea) تعني هي
باللاتينية ، و (نوبي - noi) : نحن بالاطالية ،
(تو - tu) : أنت بالفرنسية ، و (هي - he)
هو بالانكليزية .. وهكذا . كيف تكونت هذه الضمائر؟
جواب ذلك عند علم الترسيس الذي يقول انها
تكونت في المعربة . هذا عدا اسماء الاشارة وحروف
الجر وغيرها من الادوات والرواسن (التي تسبق
الكلمة في اللغات الآرية) والكواسع (التي تتلو
الكلمة فيها) .

وبالاضافة الى ان الضمائر من أول ما يتكون
من مفردات اللغة اثبت الاستقراء انها آخرها ذوبانا
وزوالا . فاذا تسلطت امة على اخرى واكتسحت
لفتها فان الفاظ اللغة المقهورة تزول بالتدريج ،
وتكون الضمائر دائما آخر ما يزول منها ، وقد لا
تزول ابدا . فوجود الضمائر اعربية في اية لغة
دليل لا يمكن اغفاله على أن اصحابها كانت لفتهم
الاولى هي المعربة .

